

أخبار وتراجم مغربية في معجم السفر للحافظ أبي طاهر السلفي

عبد الوهاب بن منصور

في بحث سابق، كنتُ تحدثُ بإيجاز عن الأخبار المغربية التي توجد في كتب مشرقية، وعن شخصيات من المغرب لم تُعرف به بالمرّة وعُرفت بالمشرق، أو انقطع الحديث عنها في أوطانها الأصلية منذ انتقلت منها إلى الأقطار المشرقية وطارت شهرتها فيها وكثُر عطاؤها بها وصار لها هناك ذكر يُذكر ورأي يسمع.

واليوم أريدُ أن أعطي صورةً ناطقةً ومُعبّرةً عما أوجزته من قبل، وذلك بالحديث عن شخصيات وأخبار مغربية مستخرجة من كتاب معجم السفر للحافظ أبي طاهر السلفي.

وقد سبقني إلى مثل ما أنا بصددّه هنا، الأستاذ المحقّق الكبير، الدكتور إحسان عباس الذي استخرج من المعجم المذكور أخباراً وتراجم تتعلق بجارتنا الشمالية، نشرها في كتابٍ سمّاه «أخبار وتراجم أندلسية»، وكنتُ أتمنّى منذُ اطلعتُ على هذا الكتاب المنتخَب أن تُسنَخ لي فرصةً للاطلاع على المعجم المنتخَب منه، والذي كنا نسمع باسمه فقط ولانراه بعينه، لأنتخب منه بدوري أخباراً أقطارنا المغربية وتراجم رجالنا، فأضيف إليها التراجم والأخبار التي اقتطفها الأستاذ إحسان عباس فيتكوّن من مجموعها أخبارٌ وتراجمٌ مغربيةٌ شاملة.

ولا بدّ — قبل أن نسوق نبذاً من التراجم والأخبار التي تعيننا من هذا المعجم من أن نتحدّث بإيجاز عنه وعن صاحبه.

أما صاحبُ المعجم، فهو أحمد بن محمد سلفه، المشهورُ بكنية أبي طاهر،

والمعروف بالسَّلَفِي، نسبةً إلى سِلَفَه التي معناها بالفارسية ذو الشفاه الثلاث، لأن جده الثالث كان ذا شفة مشقوقة، أو إلى قرية سِلَفَه بالبلاد الفارسية.

وُلد بأصْبَهان سنة 478 على الأرجح، وبدأ يطلب العلم بها وهو ابنُ عشر سنين، وبدأ الناسُ يأخذون عنه وهو في سن الرابعة عشرة التي أَلَفَ فيها معجماً لشيُوخه الأصْبَهانيين الذين يزیدون على ستائة شيخ، ثم رحل إلى بغداد سنة 493، فقرأ على عدد من علمائها وعَمِلَ لهم معجماً كبيراً⁽¹⁾. ثم ذهب إلى الحجّ، فسمع في طريقه من علماء الكوفة كما سمع من علماء مكة والمدينة، وبعد الحج أخذ يتجول بمدن فارس والعراق، نازلاً بالأربطة، أخذاً عن الشيوخ، معتنياً بعلم الحديث بصفة خاصة، وأخيراً دخل دمشق وحواضر الشام، حتى ألقى عصا التسيار سنة 511 بثر الإسكندرية الذي تزوج به وأقام فيه بصفة مستمرة حتى توفي سنة 576 هـ لم يخرج منه إلا مرة واحدة إلى القاهرة التي روى فيها عن علمائها واشترى من كُتُبِها كتباً كثيرة.

وفي الاسكندرية التي هي بابُ المغرب إلى المشرق، وبابُ المشرق إلى المغرب، والتي أقام فيها خمساً وستين سنة من غير انقطاع، يُعَلِّمُ الحديثَ وفقه الشافعي ومسائل الخلاف في المدرسة الصالحية وفي المدرسة التي بناها له العادل ابنُ السلاوي ظهرت شخصية أبي طاهر السَّلَفِي العلمية وتأكدت مكانته وسارت شهرته في الآفاق كل مسار، وأقبل عليه الطلبة من كل حذب وصوب يسمعون منه العلم ويأخذون عنه مختلف الفنون، لاسيما علم الحديث الذي برز فيه وتفوّق، واعترف له فيه بعلو الكعب وطول الباع حتى لقبه معاصروه ومَن جاء بعدهم بالتبع بمحدث الدنيا.

وفي الاسكندرية أيضاً كان يلتقي بالرجال الذين يردون عليها براً أو بحراً من آفاق الشام والمغرب والأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط أو يصعدون منها براً وبحراً إليها، فكان يحادثهم إذا كانوا من أقرانه، أو يُحدّثهم إذا كانوا دون ذلك، كل ذلك وهو لا يَغفل تسجيل ما يسمع منهم من فوائد في جذازات كما يفعلُ استاذنا محمد الفاسي أمتنا الله ببقائه.

من هذه الجذازات تألّف «معجم السفر» الذي خصصه لمن لقيهم من الناس من غير أهل أصْبَهان وبغداد، أولئك الذين خصصهم بمعجمين آخرين أحدهما غير معروف اليوم، وهو معجم عظيم الفائدة اعتمده عديدٌ من الذين كتبوا في الجغرافيا والتاريخ

(1) اسمه (المشيخة البغدادية)، وهو محفوظ في مكتبة فيض الله أفندي بمكتبة ملت باستنبول تحت عدد 532.

والحديث على الخصوص، ويظهر أنه لم يحرره في صيغته النهائية، وإنما جمع جامع فيه ما عثر عليه من جذاذاته وتقائده، لذلك يحسّ القارئ بنقص فيه وخلل في الترتيب، ويظهر أن هناك نسخاً أكمل من النسخة الوحيدة التي وصلتنا، لأن من المؤلفين من نقل من «معجم السفر» نبذاً ليست واردة في النسخة التي بين أيدينا كما تدل على ذلك مطالعة كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي.

أما طريقة أبي طاهر في سوق الأخبار وتسجيل الفوائد فهي طريقة المحدثين، إذ يبدأها حسب مفاهيمهم ومصطلحاتهم اللفظية: بأخبارنا أو حدثنا أو سمعنا من فلان أو فلان، ثم يورد الفائدة العلمية أو القطعة الشعرية أو الخبر التاريخي، وبعد ذلك يتحدث عن الخبر أو المحدث أو المسموع منه أو المنشد فيقول: فلان هذا فيسوق بعض أخباره وصفاته، ويذكر بلده ومولده ووفاته ولا يغفل عن الإشارة إلى من يشبهه أو يختلف معه في النسبة والصفة.

وقد بقي «معجم السفر» قليل التداول، يُسمع به ولا يُرى إلا في النادر القليل، وأول من أدخله إلى المغرب هو الشيخ عبد الحي الكتاني الذي انتسخه من دمشق، ونسخته هي التي آلت إلى الخزنة العامة بالرباط حيث هي محفوظة فيها مع الكتب التي صادرتها الدولة، وعلى هذه النسخة أعتمد، وقد رأيت في آخر نشرة لمعهد المخطوطات العربية بالكويت أن الكتاب طبع أخيراً بالهند.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن السلفي خصه الأقدمون والمحدثون بدراسات وترجمات منها السطحي ومنها المعمق، فقد عرف به ابن خلكان في «وفيات الأعيان»، وابن الجزري في «طبقات القراء»، وابن العماد في «شذرات الذهب» وأحمد المقرئ في «أزهار الرياض»، وآخر دراسة عنه هي التي عملها الدكتور حسن عبد الحميد صالح وطبعها ببيروت سنة 1977 تحت عنوان (الحافظ أبو طاهر السلفي).

وبعد هذه العجالة في التعريف بمعجم السفر وصاحبه آن الأوان لنقل بعض ما ورد فيه من أخبار عن المغرب الأقصى فقط، مرجعين الحديث عن الأخبار والتراجم المتعلقة بالمغربيين الأوسط والأدنى والأندلس وجزيرة صقلية إلى مناسبات أخرى إن شاء الله.

ص : 42

سمعنا أحمد بن الحسن بن علي ابن الأمير الزرهوني بالاسكندرية يقول : رؤي العتيبي في يوم صائف وهو يتفصد عرقاً فسئل عن حاله فقال :

حوائج إخوان أريد قضاءها كأني إذا لم اقضهن مريض
وأنشدني أبو العباس (يعني أحمد ابن الأمير المذكور) لجعفر بن الطيب الصقلي :

قلْ لِمَ لَمْ أَجِدْ لِي فِي صِفَاتِ الْحُبِّ صَدَقاً
خَابَ مَنْ كَانَ مُحِبّاً فَجَبِيْبٌ لَيْسَ يِقْبَى

قال : وزرهون جبل قرب فاس فيه أُم لا يحصي عددهم الا الذي خلقهم.
أبو العباس الزرهوني هذا من فقهاء مكناسة الزيتون بالعدوة من أرض المغرب، وكذلك أبوه وجده، حافظ لمذهب مالك، وكان أبو يوسف الزناتي يُثني عليه ويصفه بالحفظ، قدِمَ الاسكندرية حاجاً فأقام بها مدة وقرأ عليّ كثيراً من الحديث وكتب سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ومن جملة ذلك «كتاب الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس، و«غريب القرآن» لابن عزيز، و«مسند الموطأ» للجوهري و«شرح غريب الموطأ» للأخفش.

ص : 50

سمعت أبا العباس أحمد بن طاهر بن شيبه الفاسي بالثغر يقول : أبو علي المتيجي من فقهاء أغمات، وإلى فتاويه يرجع سلطان المغرب ابن تاشفين لدينه، تركته سنة عشرين وخمسمائة حياً، ومحمد ابن شبونة من مشاهير فقهاء المغرب يشار اليه في المعرفة بمذهب مالك وهو يسكن أغمات، خلفته بها حياً كذلك في سنة عشرين.

أبو العباس هذا من أهل العلم وقرأ عليّ أشياء أول وصوله إلى الثغر، ثم خرج إلى الحجاز ورجع إليه واستوطنه إلى أن مات، واني علقتُ هذا عنه، لأن المتيجي يذكر مع المنيجي والمتيجي.

من ص : 53

سمعت أبا محمد عبد الله ابن تويت الوزان اللمتوني المثلث بالثغر يقول، وجربته وكان ثقةً يتحرى الصدق، سمعتُ أخي الأمير أبا يعقوب ينتان بن تويت الفقيه وغيره من المرابطين الثقات بالمغرب يقولون : ولد في بني نورت — بطن من المثلثين — جسمان كاملان براس واحدة فعاشا زمانا ثم مات أحدهما وثقل الآخر فراموا قطعة منه، فشور الفقهاء فليل يصبر أيام، فلم يمض إلا قليل حتى مات الآخر.

قال أبو محمد : وولد بالأندلس في أيامنا مولود برأسين، وكان ابن غلاب السوسي حاضراً فقال الذي بلغنا أنه ولد بالمغرب مولود براس واحد له وجهان.

قال أبو محمد : وقد رأيت بمحص (محض ؟) الأندلس امرأة ولدت أول ولادتها ولدا، ثم في المرة الثانية ولدَين، وفي الثالثة ثلاثة، وفي الرابعة أربعة، وفي الخامسة خمسة، وفي السادسة ستة، وفي المرة السابعة سبعة في بطن واحدة، يُسَمَّت من روحها، وأشرفت على الهلاك، ثم امتنعت عن زوجها وأبت أن تطاوعه واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس.

أبو محمد هذا رجل صالح من أمراء المرابطين، قدم المشرق للحج وطلب العلم، وكان يحضر عندي ويقرأ، ومن جملة ما قرأ الملخص لابن القابسي، أما أخوه ينتان فكان فقيها، وذكر لي أخوه أبو محمد أنه توفي بزَيد من مدن اليمن، وأنه كان قد قرأ على ابن عتاب وأبي بحر وابن رشد وآخرين بقرطبة، وعلى ابن أبي جعفر بمرسيه، قال وتُوت اسمه محمد ولكن غلب عليه لقبه هذا، وتفسيره صيَّاح.

من ص : 160

سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك الفاسي بالثغر يقول سمعت عمي ميمون بن عبد الملك الفاسي بها يقول كان لعبدون بن ملولة الشاعر المعروف بالزرباطي بستان فيه شجرة تين يضرب بها المثل ويقال لها لامثلها، ووصى الحارس بها من الأشجار فعدا عليها فقال :

غرسْتُ من التين لا مثْلُها ومن مثل لا مثْلُها يغرس
وإني اتخذْتُ لها حارسا ومن مثل حراسها تحرس

ص : 236

ولما ذكّر سماعته من عمر بن عبد العزيز بن عبيد المالكي فقيه طرابلس المغرب كان منها قوله :

سمعت أبا حفص يكتول بن الفتوح القاضي بطرابلس المغرب يقول : سمعت يوسف بن عبد العزيز بن عديس المالكي بفاس يقول : الوقشي كان أضبط للحديث من ابن عبد البر، وأعرب منه لسانا، وكان فقيها متفنا في العلوم.

وقال أيضا : سمعت أبا حفص يقول : سمعت يكتول بن الفتوح الزناقي بطرابلس المغرب يقول : سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز ابن عديس الفقيه المالكي بفاس يقول : لو لا أن أبا عمر يوسف بن عبد البر شيخي لنقضت عليه أكثر تواليه. قال : وكان يقول ليس له طريق إلا الموطأ، ولا يُحسن سواه وما يتعلق به من الكلام عليه. قال عمر : ليس الأمر كما قال ابن عديس، فإن ابن عبد البر كان يُحسن كل فن.

ثم قال : سمعت أبا حفص يقول : سمعت يكنول بن الفتوح الزناتي بطرابلس المغرب يقول : سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز المالكي بفاس، وكان عالماً بالحدِيث والنحو والفقه والشعر، وجرى بين يديه حديثُ النبي (ص) : يجير على المسلمين أدناهم، فذكر له عن ابن حبيب انه قال : لا يجوزُ إلا بإذن الوالي، فغضبَ غضباً شديداً وقال لو كان ابن حبيب (حيا)، لأخذتُ يلحيته، النبي (ص) يقول يُجِيرُ عليهم أدناهم، وابنُ حبيب يقول لا يجوزُ إلا بإذن الوالي.

ص : 241

سمعتُ أبا حفص عمر بن سهل بن محمد الغتاني الغرناطي بعدَ قُفُولِهِ من الحجاز وتوجُّهِهِ الى الأندلس يقول : لما عزل الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سلطان المغرب أبا الحسن بن أضحي الغرناطي عن قضاءِ ألمرية كتب إلى أهلها كتاباً أوله بعد البسملة :

«كتابنا، زكَّى الله أعمالكم، وكفَّر عنكم سيئاتكم وأصلح بالكم، من حضرة مراکش حرسها الله، بعد أن نما إلينا وتقرر لدينا، أن الجهول ابن أضحي أجهلُ بأحكام القضاء من العلجوم، اذ قد أظهر فيكم أحكاماً يُترَحَّمُ فيها على سدوم، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينة كالرجوم، وقلدناه خطة الشوم، ونبذناه، دون أن تَدَارَكَه نعمة من ربه، بالعرء وهو مذموم، ولعل متعسفاً يعتسف، وجائراً لا ينصف، يلومنا في تقديمه، وينالنا من العتب بأليمه، ولا قدح، فقد اختارَ رسولُ الله ﷺ لَوْحِي الله لعين بني سرح، وقد اغترَّ عثمانُ بجمران، ولسنا أولَ مَنْ خانَه القياس، ومن لم يَأْتِهِ من الغوير باس، والله يعصمنا من الناس، ان شاء الله، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

من ص : 379

أنشدني أبو علي منصور بن مستور بن يلاسيل الفرضي الأغماتي بالثغر قال :
أنشدنا أبو بكر محمد بن ابراهيم بن الحسن الحنفي ولم يذكر قائله :

وقائلة خلَّ الصِّبا لرجاله فإن الصِّبا بعد المشيب جنونُ
فقلت لها لا تعذِّليني فإنما ألُّ الكرى عند الصباح يكونُ

وفي أخرى سمعتُ منصور بن مستور الأغماتي بالإسكندرية يقول : سمعتُ جعفر بن عبد الله المصري بها يقول : تزوجتُ فدخل علي أبو محمد التنوسي الفقيه استاذي يهينني، وحمل إلي ديناراً فقال عند قيامه : رزقك الله تعالى ودَّها، وأطعمك كدها، وأبقاك بعدها، فاستجاب الله دعاءه ورزقتُ ودَّها، وطعمتُ كدَّها، وبقيتُ بعدها.

من ص : 387

أنشدني أبو عمران موسى بن محمد بن خطاب الكندي السبتي بديار مصر،
أنشدنا أبو بحر يوسف بن عبد الصمد الخولاني الأندلسي بسبته لنفسه من قصيدة طويلة
طائلة :

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| لئن مطلّتي الليالي بوعد | فكم أمسك الغيث ثم انهمل |
| وان نلت من بعد لأي مرادا | فما أحسن الحلّي بعد العطل |
| وقد يمكن الوصل بعد الصدود | وقد يُدرك الأمن بعد الوجّل |
| وتعرض ثم تصحّ الجسم | وتضعف ثم تزول العِلل |
| ولابدّ للريح من أن تهبّ | ولا بد للروض من أن يطل |

أبو عمران كان من أعيان العدو بالمغرب، وقد زوّجه مروان بن سمجون اللواتي
الطنجي ابنته، وسمع الحديث عليه وعلى أبي اسحاق الفاسي، وأنشدنا مقطعات كثيرة
من أشعار المغاربة الذين رآهم كأبي الحسن علي ابن يباع السبتي والمرادي المتعلم وأبي
بحر الخولاني الأندلسي، سمع عليّ كثيراً طول اقامته بالثغر، وكان شيخاً موقراً حسن
الأدب، آثّر الرياسة بينه عليه، ورجع إلى المغرب، وهناك تُوفي رحمه الله تعالى.

من ص : 470

أنشدني أبو الحسن يحيى بن القاسم بن عامر الفاسي بالثغر، أنشدني خشون
الفاسي الملقب بكلب الشعراء بمدينة فاس لنفسه من قصيدة :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| اسقني الراح وبنة من رقد | مالمن مات من السكر قود |
| ماترى البدر وقد روعه | وافد الإصباح إذ قيل وفد |
| والثريا نحوه مائلة | مثل جيد قد من طوق زرد |
| مع فيان كوار الرّبي | نسج الطرف لهم منها بُرد |
| جرّروا للهو أذيال الصبا | وانتصوا للفتك ما كان غمد |

يحيى هذا كان من أذكى خلق الله، كثير الحفظ للشعر والحكايات، وسمع عليّ
كثيراً من الحديث، وعلقت عنه فوائد، وكان من أصحاب أبي الفضل ابن النحوي،
ويورد من رسائله كلّ مليحة.

ومن ص : 481

سمعت أبا زكرياء يحيى بن علي بن حمزة الكتامي بالثغر يقول، كان عبد العزيز التونسي الفقيه بأغमत امتنع عن تدريس الفقه وقال كل من يقرأه علي يصير قاضياً وعوناً للظلمة، فمن أراد القراءة علي فعليه بالحديث وكتب الرقائق التي تحبب الآخرة إلى قارئها وتبعض إليه الدنيا وتقرّب من الله تعالى وتبعده عن أبواب السلطان وتزيين الشياطين.

من ص : 489

سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبدون بن حفاظ الزناتي بالإسكندرية يقول، سمعت أبا عبد الله البادسي الفقيه وهو من بادس فاس لا من بادس الزاب من أحواز القلعة، قال سألتني أبو إسحاق الحبال الحافظ بمصر أن أسمع الحديث عليه وقال لي : اغتنم حياتي فإني كبير السن كثير السماع عالي الإسناد، وذلك في جامع عمرو ابن العاص.

ومن ص : 491

سمعت أبا الحجاج يوسف بن القاسم الأنصاري الفاسي يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن محفوظ الفاسي ونظر إلى أهل مصر في يوم كسر الخليج وانفاقهم الأموال العظيمة في غير طاعة الله تعالى :

عيّد سوء فسقاً لا يعرفون الشفقة
في كل وجه فاسد يضيقون النفقة